صور الموت في روايات خليل الجيزاوي

أحمـــد محمـــد جـــبريـــــل (*)

"مقدمة"

فإنه لا شك أن الموت مصدر قلق رئيس يلازم الإنسان في كل زمان ومكان، وبمجرد التفكير في الموت وفي نتائجه يشعر الإنسان بالخوف والرهبة، والموت ليس قاصرًا على الموت المادي فقط؛ بل إنه يتشكل في صور متعددة، منها: الشعور بالصمت، والفقد، والضياع.

أسباب اختيار الموضوع:

كان وراء اختيار هذا الموضوع عدة أسباب أهمها ما يأتي:

أولًا: ندرة الدراسات حول هذا الموضوع.

ثانياً: الكشف عن رؤية الكاتب لفكرة الموت.

ثالثاً: إثراء المكتبة العربية بدراسة علمية تتناول الموت في روايات خليل الجيزاوي.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والاطلاع تبين لي أنّه لا توجد دراسة في موضوع (الموت في روايات خليل الجيزاوي) وهناك دراسات تتعلق بفكرة الموت عامة من المنظور الروائي وقد أفدتُ من هذه الدراسات، ومنها:

١- "الموت ثيمة فجائعية في الرواية العراقية، وحدها شجر الرَمان لـ"أنطون" سنان نموذجًا" سمية سليمان الشوابكي "دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد ٤٦ العدد ٢٠١٩م، ستتحلى هذه الدراسة حضور الموت ماديًا ومعنويًا في المتن الروائي نفسه، ودلالاته في البناء الروائي كله بوصفه ثيمة فجائعية ألقت بظلالها على هذا المنجز في أبعاده المتعددة.

(*) هذا البحث مستل من رسالة الماجستير الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: [سردية الموت في روايات خليل الجيزاوي (دراسة نقدية)]، وتحت إشراف: د. محمد محمود حسين – كلية الآداب – جامعة سوهاج & د. مؤمن أحمد محجوب – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

٢- "صورة الموت في رواية الأزمة الجزائرية رواية "الحلاج وزغارية الدَماء" لـ محفوظ كحوال أنموذجًا.

رسالة ماجستير من إعداد: حبيبة حجاج – مليكة أوكسل.

تطرقت هذه الدراسة إلى مفهوم الموت والحديث عنه في الفكر الفلسفي الغربي، والفكر الصوفي الإسلامي، كلما تطرقت إلى هذه الدراسة إلى تقديم صور العنف والإرهاب، كما تطرقت إلى مظاهر العنف وأشكاله مثل المظاهرات، أحداث الشغب التمرد الإضراب، الاغتيالات، الانقلاب.

٣- "جدلية الحياة والموت في روايات غسان كنفاني وإبراهيم نصر الله "دراسة تحليلية".

إعداد الباحثة: سمية عصام إبراهيم وادي.

منهج البحث:

اتبع الباحث في دراسته المنهج الوصفي الذي يُعنَى بوصف ظاهرة الموت في روايات الكاتب، ورصد أبعادها الموضوعية والفنيّة.

المبحث الأول
الموت المادي

الموت المادي أو الحقيقي هو عبارة عن خروج الروح من الجسد الإنساني والانتقال من مرحلة الحياة إلى انعدامها، يرتبط الموت ارتباطًا وثيقًا بحياة الإنسان، إذ أنه هو قضية حتمية لا مفر منها، فكل إنسان نهايته الموت، فالإنسان يحمل موته على عاتقه منذ نشأته على قيد الحياة، كما أن الموت لا يفرق بين الكبير والصغير، السليم والعليل، الغني والفقير.

"لا تزال التجربة تؤكد كل لحظة أن الوجود الإنساني يتم تسليمه بكامله إلى الموت، وأن المرء ما أن يطلق "الشهقة الأولى" للحياة حتى يصبح ناضجًا بما يكفي للحصاد أمام منجل الموت، لقد وعى الإنسان نفسه محتضرًا على هذا النحو، وأدرك هذا الحكم الأبدي أو النهائي، وابتكر في مواجهة هذا الحكم المؤلم حلولًا معزية تُحقّق من مرارته وقسوته، وذلك لأن يقين الموت وحتميته لا يساويه سوى عدم اليقين بموعد حلول، وهذا أجمل ما في هذا المعادلة على الإطلاق لأن هنا فقط

يتاح للإنسان أن يراوغ فكرة الموت لمهارة فائقة، مهارة أمدته بها الحياة نفسها كتعويض مناسب عن فاجعة الموت".[١]

"السؤال عن موت النفس، أو موت الجسم يشغل الكثيرين حتى وقتنا الراهن، وطرح منذ أمد بعيد مناقشات جدلية زاد من حدتها الانقسام الفلسفي الحاد الذي سيطر على مسرح الحياة المعاصرة، هل يموت الجسم وحدة، وتبقي النفس خالية؟ أم أن الموت دمار شامل، يطحن طرفّي هذه المعادلة في سياق حدث كوني عام".[٢]

ويبدو لي: أن جمع الكائنات والموجودات على ظهر الأرض سوف تفنى وتموت عاجلًا أو آجلًا، وعلى الرغم من ذلك فإن الإنسان هو الوحيد الذي يدرك تمامًا أنه سيموت وكل ما في الكون فهو فانٍ.

وتمثل الموت بصورته الحقيقية في شخصية عطية الشناوي وهو الشخصية الرئيسة في رواية (أحلام العايشة) الذي قتل على يد عائلة الشناوي وذلك عندما دارت معركة بين عائلة الكومي وعائلة الشناوي، هذا الرجل الذي أخذ أموال أهل القرية".

يقول الراوي: "تشتعل المعارك تسيل الدماء بين عائلة الكومي وعائلة الشناوي، يقتل عطية الشناوي، ترى الآن سيارة الإسعاف تعوي، تصرخ بالكومي إلى مستشفى زفتى العام، تروى شجرة العنب الكبيرة التي تعلو التكعيبة، تشرب من دماء الشناوي، تنمو الشجرة، تثمر من جديد، في غير أوانها، تطرح عناقيد كثيرة من العنب".[٣]

هذا المقطع يبرز صورة العدو الصهيوني الذي تمثل في شخصية الكومي الذي ظلم وقتل، وسرق أهل القرية، لكن جاءت في النهاية الحرب التي كشفت كل ما يخبئه وراء ظهره، جاءت الحرب لتبدد الظلام الذي يعيشه أهل مصر، نتيجة بسط نفوذ العدو الصهيوني عليهم، وذلك بعد أن خضعت البلاد لقانون الفساد الذي يحكمهم ويمارس سلطته المستبدة عليهم، فقد حان الوقت إلى تبديد هذه الأفعال الظالمة أو إشراق شمس جسدت تنزيل الظلام.

(١) محمد عبد الهادي حيدر، تجارب عتبة الموت (وقائع ومدلولات)، دار نداق للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ص١١١.
(٢) محمد منير، الموت والمغامرة الروحية، دار الحكمة للطباعة والنشر دمشق، ط١، ص١٠٥.
(٣) خليل الجيزاوي أحلام العايشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ص٥٥-٥٦.

وموت آخر يتمثل في تجسيده الحقيقي وهو موت محمد خليل أثناء الحرب وهو الشخصية المساعدة لبطل الرواية أبي العزم: "آه يا محمد! تحمل بقايا محمد خليل، بل بقاياه تحجل على قدمك اليمنى تصرخ، تبكي، تحمله على ظهرك تمشي متفاديًا الفخاخ القنابل الصغيرة التي تشبه الرمال قنابل الجوافة تسير على المدق المتعرج، تصعد هضبة تمادة العالية، والدماء الساخنة تسيل على ظهرك تشعر بالدماء لزجه دافئة على رقبتك".

وباستشهاد محمد خليل، يصف الراوي بلفظ (آه) مدى الجراح والآلام والمعاناة الداخلية التي عاشها أبو العزم بعد فقد صديقه في الحرب، وتعبر أيضًا عن المشاعر المكبوتة له وهو في صحراء سيناء وحيدًا منكسرًا يبحث عن رفاقه، وموت آخر تمثل في موت الزعيم جمال عبد الناصر.

يقول الراوي: "هذا الرجل الذي كان يحبه المصريون جميعهم ستستيقظ من غفوتك على الصوت الذي يكاد يبكي بصوت عالي وهو يقرأ ذلك البيان الحزين الذي زلزل النفس، أدمي القلوب: (أيها الأخوة المواطنون).

فقدت الأمة العربية رجلًا من أعظم الرجال، رجلًا من أشجع الرجال .....

تبكي والقبائل كلها تبكي والإذاعات كلها تبكي والسموات كلها تبكي، لكن هل مثل عبد الناصر يموت".[1]

يصرخ الجميع لفقد الزعيم البطل الذي خطط حياتهم وكانوا يشعرون، بالأمان والاستقرار في ظل حكمه، هذا الرجل الذي كان يحارب الدنيا دفاعًا عن كرامتهم، وشموخهم وشموخ الأمة العربية جميعها، وكان الناس يبكون، يبكون أباهم وليس الرئيس، هذا الرجل الذي يحبهم ويحبونه الذي تفيض دمائهم بحبه، عندما مات كأنهم فقدوا الحرية التي كانوا يتمتعون بها.

ويرتبط فعل الموت بفعل القتل في هذه الرواية يتجسد في صورته الحقيقية أخذًا بالثأر الذي يتمثل في قتل الكومي على يد أبو العزم أخذا بثأر أبيه الذي قتله الكومي، وفي نفس الوقت أخذ بثأر شاديه منصور محبوبته التي تزوج منها، عندما ظنوا أنه مات في الحرب، "يضرب أبو العزم قسوة ضياع الحلم، قتل الشيخ، اغتصاب الأرض غدرًا، ضربة أطاحت بالشومة بعيدًا، الثانية تلطم الجبين، تشقه

(١) أحلام العايشة، ص٧٣.

نصفين، يترسخ يتكوم يحتضن الكومي الكبير الدماء تفور، تكتب سطور النهاية/ البداية".[١]

جسد المقطع السابق صورة الحق تنتصر في النهاية، وأنه لا بقاء للظلم، حيث لم يعد للظلم والاستعباد مكان في القرية فيتغلل الموت كل تفاصيل الحياة، ويأتي على غير موعد، ويصيب الإنسان فجأة، ومن الممكن أن يحدث عن طريق القتل، كما حدث مع شخصية حسن الرفاعي في رواية الألاضيش، وتجسد موته عن طريق القتل، وأصبح جثة هامدة ملقاة على الأرض.

يقول الراوي: "يهرول جابر عائدًا إلى البلد، يصرخ باكيًا في الشوارع: قتيل يا بلد، قتيل. (حسن الرفاعي أتقتل يا بلد).[٢]

وبهذا القتل راح حسن الرفاعي ضحية، للقاتل الغادر أبي الفرج، وهذا واقع أن الموت يمثل دومًا مفاجأة صادمة دون أي مقدمات.

وعلي ذكر حادثة القتل في هذه الرواية تجسد الموت في صورته الحقيقية في صورة قتل العمدة،

والشيخ رفاعة على يد أبي الفرج أيضًا " وكانت الصراخات الملتاعة واللطمات المتتالية الموجعة على الخدود تعلن وفاة العمدة والشيخ رفاعة في غرفة العمليات، ونجاة الشيخ حامد بركات؛ لأن الطلق الناري أصابه في وركه، والشيخ محمد الشناوي أصابه الطلق الناري في بطن ساقه".[٣]

جسّد المقطع السابق موتًا حقيقيًا تمثل في صورة قتل لأن القاتل أراد أن يتخلص منهما، كي يخلو له الجو، ويقوم باستنزاف الفلاحين، وبهذه الحادثة الموجعة لبست القرية ثياب الحداد وخيم الحزن على الرجال والنساء الكبار والصغار، هذه هي الحقيقة العارية التي ينشغل عنها الناس. الموت ليس قاصرًا بالباقيين فقط الذين هم على قيد الحياة، بعد فراق شخص عزيز يتولد حزن عميق يسبب للشخصية الألم والأحزان، وهذا ما حدث في رواية سيرة بني صالح، نجد الشخصية المحورية خليل الابن وهو في قمة حزنه واستيائه وحالة البكاء المستمر

(١) أحلام العايشة، ص ١٤٦.
(٢) خليل الجيزاوي، الألاضيش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ص١٦.
(٣) الألاضيش، ص٨٠.

الذي يعيشه عندما يتذكر كل أهله الذين رحلوا عنه وفارقوا الحياة "تسبح العينان بالضبابة الدمعية".[١]

هذه العبارة توحي بالألم الفراق الذي يعاني منه الابن وذلك بسبب فقد الأحبة، وفي كل المرات يُعبّر الراوي عن وجع الفراق التي تعيشه الشخصية مع الدموع التي تشتاق للأحبة الغائبين.

وعلى ذكر الموت نشاهد الجدة وهي تسرد لحفيدها خليل عن زيارة موتى أسرتها لها في المنام، الجد والوالد والأخ، وجاء على لسانها "طول الليل امبارح شايفه جدك، خالك، أبوك واقفين هنا قدام الشباك ده لابسين أبيض في أبيض، بينادوا عليَّ، أبوي بيمد أيده عشان يأخذني معاه بيقولي كفاية يا بنتي كده خلاص إنتِ عملتي اللي عليكِ وأكثر، يقول الراوي: "أبكي على صدرها أقبّل يديها، رأسها وأضمها لصدري قائلًا: لا يا أمي لسه بدري قومي أنتِ زي الفُل"[٢]

فهذا المقطع يعبر عن اللغة المشحونة بالألم والحزن والمعاناة والمرض الذي تعاينه الأم، وتروي زيارة الأحبة الغائبين وذلك لأنها شعرت أنها اقتربت إلى أن تصل إليهم.

وفي مشهد آخر يروي الابن خليل زيارة أمه المتوفاة من مدة طويلة، وفي حالة استرجاع زمني يستدعي زيارة أمه له بقوة الخيال "هل يمكنني أن أكشف أحد الأسرار الخفية التي تربط بيننا، ربما كان ذلك الذي يدفعني دفعًا أن أسافر كل أسبوع كالعادة أنزل سوق المدينة أشتري اللحمة والخضار اشتري الكبدة التي تحبها".[٣]

هذه الزيارة بعد موت الأم وذلك بعد أن حكي خليل لأخيه إبراهيم عن المنام الذي رأي فيه أمه كأنها طائر أخضر، لهذا السبب ذهب خليل لزيارة بيت أمه بعد وفاتها.

وفي مشهد آخر يوضح لنا الراوي زيارته المستمرة لبيت الأم "من يومها أسافر كل أسبوع، أفتح الشبابيك، وبلكونة الشقة البحرية، أضع فيها الحبوب والماء حتى تأكل وتشرب كل الطيور، فتتألف الشقة ولا ترحل الشمس".[٤]

(١) خليل الجيزاوي سيرة بني صالح، دار الثقافة والإعلام بالشارقة، الإمارات، ط٢، ص١١.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣.
(٣)سيرة بني صالح، ص٤١.
(٤) المصدر السابق، ص٤٤.

حيث كان ينظر إلى الشمس وكأنها أمه التي لم تغب عنه، وكأنها تعيش معه، وكأنها حاضرة أمام عينه ويسرد الراوي المقطع يرد يجسد الحزن الذي يختم عليه والمعاناة التي يعانيها لفقد أمه وعلى لسانه، "كنت أبص للشمس، للطيور المحلقة في رحلة العودة أقول راجيًا باكيًا: عودي يا أمي، ولا ترحلي مرة أخرى".(١)

هنا يرسم الراوي عالمًا غير واقعي حيث إن الابن ينظر إلى الشمس والطيور وكأنه يرى أمه أمام عينيه يحدثها وتحدثه.

اعتبر الفلاسفة الموت أمرًا لإطالة الفكر، ولا يدخل في نطاق إمكانية المعرفة، إذ لا يمكن اختيار الموت بشكل من الأشكال، بأنه موضوع ينطوي تحته عديد من المفارقات ويحمل العديد من التساؤلات التي جعلت الإنسان في حالة ذعر دائم وخوف شديد أنه قضية حتمية لا محل للسؤال أو البحث فيه فلطالما ظنوا أن الموت بداية لحياة جديدة بشقين إما النعمة أو الشقاء وهذه هي الحياة الحقيقية.(٢)

وأرى أن الموت ما هو إلا نهاية طريق يصل الإنسان بهذه الحياة، وما هو إلا معبر لحياة أخرى أعدها الله سبحانه وتعالي بعلمه وقدرته جل شأنه، وهذا يخالف رؤية الفلاسفة للموت؛ فهو انتقال من الدنيا إلى عالم غيبي برزخي، وهذا في نطاق المعرفة العقدية الإسلامية.

"جرائم القتل قديمة قدم الإنسان ومنذ بداية الخليقة أيام قتل قابيل أخاه هابيل، وأصبح الفرق بين الحياة والموت ثوان مجرد وقوع مشاجرة ما يتحول أحد الطرفين إلى جثة هامدة، أصبح التطاول بالسلاح هو الأداة التي يتحدث بها القاتل، وأصبح القتل هو لغة الحوار بين القاتل والمقتول في أغلب الأوقات "وللقتل أنواع كثيرة يختلف نوع القتل حسب الدوافع التي أدت بالقاتل لارتكاب الجريمة، هذا يخص بالحديث عن القتل العمدي وهو القتل الذي يتعمد فيه القاتل إزهاق روح المجني عليه بأداة تؤدي إلى الموت، أو افتراقه الفعل الذي يؤدي إلى إزهاق الروح بنية القتل".(٣)

(١) سيرة بني صالح، ص٤٤.
(٢) أمل مبروك، فلسفة الموت، دار التنوير، بيروت لبنان، ص١٣.
(٣) قادة بلغيتيري فضلون، المجرم القاتل، دراسة ميدانية في المؤسسات العصمانية مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير أنثربولوجيا جامعة تلمسان، ط٢، ص٨.

ومن الروايات التي طرحت جانبًا أيضًا من جرائم القتل رواية (أيام بغداد) التي تطرح قضايا عدة، وتأزمات نفسية، ويتمثل القتل في هذه الرواية، بمقتل عماد الطالب بكلية التجارة الذي سافر من مصر إلى العراق، وقد أقام علاقة مع امرأة عراقية، وتلك المرأة كان زوجها ضابط في الجيش العراقي، وتطورت علاقة عماد معها، حتى أنه تردد عليها في بيتها، لكن حينما شك زوجها، راقبهما حتى إنه شاهدهما يقفان معًا، وسرعان ما أخرج الضابط العراقي مسدسه وأطلق على عماد ثلاث رصاصات على صدر وبطن عماد، حتى أدي به إلى الموت، وهرب الضابط وفر مسرعًا" .

كان مجدي وجهه شاحبًا أصفر اللون، عيناه خائفتان، كأنّه لم ينم منذ أسبوع، بكى مجدي وهو في حضنه مثل الأطفال الصغار، دفعه في كتفه غاضبًا وصرخ فيه.

قل: ماذا حدث؟

عماد ... عماد مات يا محمد"[1]

يُجسّد المقطع هنا صورة الإنسان المصري الذي لا قيمة له في بلاد الغربة التي لا تحنو على الغرباء، وهم يسعون إلى طلب الرزق، وفي نهاية الأمر يعودون إلى بلادهم وهو في صناديق الموت، كأنهم لا قيمة لهم.

شهد العالم العربي منذ زمن طويل حروبًا عدة، ولا تزال هذه الحروب في العصر الحالي، صراعات مختلفة ضد العدو، سواء كان في الاستعمار الأجنبي أو في الحروب الأهلية بين بلد وأخرى.

والرواية باعتبارها المرآة التي تعكس واقع المجتمعات عكست هذا الصراع، ما بين الماضي والحاضر، والواقع والمتخيل، وبكل واقعية عبرت الرواية عن الحرب، وذلك نتيجة الظلم والقهر التي تعرضت لهما البلدان العربية كما جاء في رواية (أيام بغداد) شخصية كاظم وهو شخصية ثانوية في الرواية في الحرب العراقية، "كانت كريمة تلطم خديها، وتصرخ باكية قائلة:

كاظم مات في الحرب.. كاظم مات في الحرب.

اقترب منها ليتأكد، فإذا بها ترمي في حضنه باكية فسألها فزعًا:

(١) خليل الجيزاوي، أيام بغداد، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ص١٢١.

كاظم ابن الحاج عبد الرحـ..... وبكى معها، بكى كأنه لم يبكِ من قبل، لقد قابلته مرتين في آخر زيارة له للفندق، كان يشبه والده كثيرًا، واندفع كل العاملين في الفندق يبكون كاظم، وكانت أصعب مشكلة تواجهه، كيف يبلغ الخبر للحاج؟ لأن زميله أبلغ كريمة على تليفون الفندق".[١]

جسد هذا المقطع الحرب الأهلية التي أدت بالمواطن العراقي إلى الموت، وبالتالي فرض الموت سطوته على البلاد، وأصبح الصراع الأوحد هو الحياة أو الموت لكي في النهاية ينتصر الموت، ويموت الابن ويترك لأهله الألم والوجع والمعاناة.

وعلى ذكر الاستشهاد في سبيل الله، نشاهد في رواية (خالتي بهية) عم عبده الشخصية المحورية في الرواية التي استشهد أخوه في حرب أكتوبر ١٩٧٣م، بعد زواجه بسنة واحدة، وهنا تتحول الأحداث حيث يأمره أبوه أن يتزوج بامرأة أخيه سكينة على الرغم أنه متزوج من امرأة أخرى تدعي زينب التي كان يحبها كثيرًا، ورفض أن يتزوج من امرأة أخيه، لكن مع إصرار والده وإلحاحه بأن يتزوجها، تزوجها وأنجب منها خمسة أولاد على ابنها الوحيد جمال من أخيه "وما زاد الطين بله، أن أخاه الصغير استشهد في حرب أكتوبر من ١٩٧٣م، بعد زواجه وحلف عليه أبوه بالطلاق الغليظ أنه سيطلق أمه إن لم يتزوج بزوجة أخيه، وجلس عبده يبكي بساحة البيت، وينهنه مثل طفل صغير! مش عاوز أتجوز ثاني، زينب عندي بالدنيا.[٢]

هنا تجسد الموت في صورته الحقيقية، حيث قام بتحويل بعض الأحداث وتعقيدها في الرواية، وهذه حيلة لجأ إليها الكاتب ليضمن للرواية طابعًا خاص بها على المستوى الاجتماعي.

وتجسد الموت بصورته الحقيقية في هذه الرواية بموت عم جابر النويهي الذي كان يحفظ أسماء شهور السنة القبطية وبدايتها ونهايتها، مع أيام وشهور السنة الميلادية وكذلك كان يحفظ الأمثال الشعبية ولم يكتشف أحد من جيرانه أنه مات؛ لأنه كان يعيش وحيدًا في بيته.

(١)أيام بغداد، ص١٨٢.
(٢) خليل الجيزاوي خالتي بهية، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ط١، ص١١.

يقول الراوي "مات عم جابر النويهي بالليل، ولم يكتشف أحد أنه مات، لأن جيرانه اعتادوا أن يروه نائمًا على مصطبة الدار طيلة الليل والنهار".[١]

وموت آخر يتكرر في هذه الرواية في صورة الاستشهاد في الحرب موت عبد الله أبي العزم وفي الحرب زوج بهية التي تعيش في بيتها وحيدة بعد وفاته والتي تركها وحيدة هي وابنها يعانون آلامهم وأحزانهم لفقدهم إياه "خالتي بهية تعيش في بيتها وحيدة بعد أن استشهد زوجها عبد الله أبو العزم في حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وهو شاب صغير، ولم يكمل معها سوى عامين فقط، ويدوب شاف ابنته سماح الوحيدة".[٢]

جسّد المقطع هنا موت الزوج، وإخلاص زوجته له، وهذا ما يتمثل في نقاء الوطن الذي تمثل في بهية زوجته لما تتسم به من إخلاص وعفة وصبر وحبه لمن يضحي بحياته من أجله.

وموت آخر يتمثل في شخصية عبد الفتاح الذي كانت شهرته "المزين" في قريته، وذلك بعد رحلة طويلة في حلاقة وقص الشعر والدقن للرجال والأولاد في القرية، وكان أيضًا "مرض عم عبد الفتاح المزين مرضه الأخير، وظل يسافر البندر، ويزور الدكاترة، ثم مات وترك لنا الذكريات الله يرحمه".[٣]

وبعد وفاة عبد الفتاح المزين حدث تغيير كبير في القرية حيث أصبحت أكثر تطورًا، أصبحت الحلاقة في المحلات بدلًا من المصطبة.

كما تمثل الموت في صورته الحقيقية أيضًا في موت وهيبة التي تقوم بدور المسحراتي، التي كانت تلف وتدور في القرية كلها، وهي تضرب بيدها على طبلتها من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وحتى الثالثة فجرًا حيث موعد أذان الفجر: "وماتت الخالة وهيبة وفقدت بلدنا حاجة كبيرة قوي بموتها، صحيح ابنها مداح لا يزال يحمل الطبلة ويلف شوارع بلدنا مع زوجته طول ليالي رمضان كل سنة، لكن مداح لم يهبه الله حلاوة وعذوبة صوت الخالة وهيبة".[٤]

وبعد موت وهيبة فقد أهل القرية صوتها، الذي يوقظهم من نومهم لوقت السحور، لكن تولى ابنها مداح المهمة بعد وفاة والدته، لكن مع التطور الذي حدث

(١)خالتي بهية ، ص١١٥.
(٢) المصدر السابق، ص١١٨.
(٣) المصدر السابق، ص٢٠٥.
(٤) خالتي بهية، ص٢٢٠.

في القرية وعندما دخلت الكهرباء القرية لم يحتج أهل القرية أحدًا لإيقاظهم فالكل متيقظون ساهرون.

الموت له تأثير كبير على النفوس، فإذا كانت لحظة ميلاد الإنسان تجلب السعادة له، فإن لحظة الموت تجلب له الشفاء والحزن والتعاسة.

كما تمثل الموت بصورته الحقيقية في رواية (البومة السوداء) هذه الرواية التي حملت من الموت معاناة كبيرة خلفت وراءه آلام نفسية سيطرت على الجدة التي فقدت أبناءها الثلاثة.

"دار جدتي هي الوحيدة في العزبة التي لا تعتمد على العمل في الفلاحة، كما تعتمد دور الفلاحين في بلدنا، لأن جدي قام بتأخير أرضه بعد وفاة أخوالي الثلاثة".(١)

تحولت الأحداث بعد وفاة الأبناء حيث قام الجد بتأجير الأرض واكتفى بحراستها، ومن بعده زوجته.

وفي مشهد آخر تتذكر الجدة كراهية نبيلة الساحرة لها، ولأولادها، وذلك بعد إنجابها ثلاث أولاد ذكور وبنتًا واحدة، من هنا تبدأ الجدة صراعاتها الداخلية مع الجارة الشريرة، وازدادت حقدًا وحسدًا على الأبناء، التي كانت تقوم بالأعمال السحرية لهم فيموت الابن الأكبر إبراهيم وهو شاب صغير وبعده بسنتين يموت الابن الثاني وهو صغير وبعده بسنة ونصف يموت الابن الثالث حميدو وبعد ذلك يموت الأب حزنًا على أبنائه الثلاثة الذين ماتوا في ريعان شبابهم، ويموت الجد والأبناء كادت الجدة أن تفقد عقلها حزنًا على زوجها وأبنائها الثلاثة، لكنها ظلت متماسكة وتحاول استعادة قوتها ووعيها إلا إيمانها الذي تتمسك به في مواجهة الصعاب والمصائب التي تواجهها: "لا حيلة في الرزق ولا شفاعة في الموت، ولا راحة للإنسان في الدنيا، ولا راد القضاء الله، ولا سلامة من ألسنة الناس".(٢)

ويسرد الراوي موت الابن الأصغر، وذلك مع معاناته مع المرض بسبب ما فعلته نبيلة الساحرة من الأعمال السحرية وتقوم الجدة بسرد حكايات أبنائها لحفيدها ومعاناة ابنها إبراهيم وصراعاتها الداخلية مع نبيلة الساحرة ومحاولاتها إبطال السحر الأسود الذي أفسد حياتهم وجعلها كالجحيم.

(١) خليل الجيزاوي، البومة السوداء، سلسلة ابداعات عربية، بدار الثقافة بالشارقة، ط١، ص١٤.
(٢) البومة السوداء، ص٥١.

"صحوت فزعة، أهزّ خالك إبراهيم يا ولدي... ولم يرد خالك إبراهيم، وكان الله قد استرد عطيته".[1]

كانت الجدة عندما يموت أحد أبنائها تقوم بوضع جلبابه في جدار القاعة تخليدًا لذاكره، ويموت ابنها الثاني جمعه وهو في ريعان شبابه، تواصل الحكي لحفيدها تحكي قصة ميلاد ابنها جمعة ووفاته: "انظر هناك في الركن البعيد، هذا هو خالك جمعة، واسطة العقد حبيب قلب وعين أمه وروحها، أنظر حيث أشارت، في الركن الثاني البعيد، أرى خالي جمعة يقف على الجدار، في جلابيبه الثلاثة في أعمار مختلفة وكانت جدتي قد كتبت تاريخ خالي جمعه بجوار تاريخ خالي إبراهيم رحمة الله على جدار القاعة الصغيرة وكانت كل مرحلة من مراحل سنوات عمر خالي جمعة، ترد الأحداث وتسجل مرحلة مهمة من مراحل عمره القصير".[2]

كما تمثل في هذه الرواية القتل الخطأ دون عمد وهو ما حدث مع البومة السوداء، وهي المرأة الجميلة التي تدعي سالمة، هذه المرأة كان لديها طفل صغير وحيد وذلك بعد حرمان من الأمومة لفترة طويلة، وذات يوم أرسلت طفلها إلي جارتها كي تستعيد غربالًا، وأوصته ألا يتأخر عنها، وذهب طفلها إلى بيت الجارة، وفي طريقه وجد أطفالًا يلعبون في أحد الشوارع، فمضى يلعب معهم، ونسي أمه والغربال، وظل يلعب مع الأطفال لأنه كان وحيدًا في بيته، لم يكن له إخوة تشاركه اللعب ولما حان وقت الغروب، تذكر الطفل أن أمه أرسلته كي يستعيد غربالًا من الجارة وأخذه وذهب به لأمه، وكانت تنتظره هي بلهفة وهي غاضبة منه وفجأة لمحته قادمًا، إليها، وأسرعت ناحيته وأخذت تضربه ضربًا مبرحًا لم يتحمله هذا الطفل الصغير وبعد ذلك مات الطفل دون قصد منها أخذت تصرخ وتبكي بحرقة بسبب أنها كانت السبب في وفاة ابنها الوحيد، لكن لم يتقبل عقلها ما حدث وذهبت إلى الجبال والصحراء فمسها الشيطان بسحر بومة كبيرة؛ لذا أطلق عليها البومة السوداء "ومات الولد في الحال، وعندما انتبهت الأم إلى أن جسد الصغير قد سكن وخمد، ولم يعد يقاوم، بدأت تقبله، وهي تبكي وتصرخ، وانتبهت إلى أنها قتلت طفلها الذي كانت تنتظره سنوات طويلة، لم يتقبل عقلها حقيقة ما حدث فهامت على وجهها في الصحراء والجبال حتى مسها الشيطان وسحرها بومة كبيرة، وكانت

(١)البومة السوداء، ص ٨٧.
(٢) المصدر السابق، ص٩٥.

تصيح بأعلى صوتها طوال الليل: سأتبع الذكر إلى أن يصبح راعيًا للبقر، وسأتابع البنية إلى أن تصبح صبية".[١]

وتستمر الجدة في السرد لحفيدها عن موت ابنها الأصغر حميدو وذلك بعد معاناة مع السحر الأسود وذلك بسبب نبيلة الساحرة التي أفسدت عليهم الحياة بموت أبنائهم: "نام جدك ثلاث ساعات ونصفًا وقام يصلي الفجر كعادته كل يوم في المصلية، وبعد عشر دقائق عاد باكيًا وهو يحمل خالك حميدو على كتفه، ويضعه بجواري على السرير، وكان الله عز وجل قد استرد أمانته".[٢]

وتمثل الموت أيضًا في صورته الحقيقية في موت نبيلة الساحرة وهي الشخصية المحورية في الرواية، وذلك بعد أن وجدها أهل القرية مذبوحة في فناء المنزل، ولا أحد يعرف من القاتل: "بعد الغداء طرق جدك عليها الباب كثيرًا، حتى تجمع الكثير من الأقارب وأشار الشيخ سالم بضرورة كسر باب دارها، وتجمع ثلاثة من الرجال على باب دارها فكسروه، وتعالت الأصوات والصرخات ووجدها مذبوحة وسط دمائها في صحن الدار، وتم إبلاغ العمدة الذي قام بإرسال إشارة للمركز".[٣]

وبعد موت الزوج والأبناء الثلاثة وحزن الجدة لفترات طويلة، توفيت بعد صراع طويل مع المرض، وذلك نتيجة حزنها وآلامها على أبنائها وزوجها: "سريعًا قفزت فوق أمي لأخذ جدتي في حضني وأبكي بصوت عال، أبكي أمي التي تربيت في حضنها سبع سنوات كاملة، أبكي أمي التي أعادت تشكيل رأسي وعقلي، أبكي أبي الذي علمني كيف أقرأ وكيف أفكر؟".[٤]

جسد هذا المقطع موت الجدة بعد صراعها مع نبيلة الساحرة، وكشف أيضًا عن حالة الحزن العميق

التي تسيطر على الحفيد حزنًا على جدته التي كان يعيش معها، لكن بعد موتها شعر بفراغ كبير يسيطر على عالمه الداخلي.

(١) البومة السوداء، ص١٤٠-١٤١.
(٢) المصدر السابق، ص١٩٥.
(٣) المصدر السابق، ص٢٢١.
(٤) البومة السوداء، ص٢٣٢.

ومما سبق يتضح أن الموت يتشكل بصورته الحقيقية في أشكل عدة منها الموت عن طريق القتل او الاستشهاد في سبيل الله أو الموت الطبيعي ، مما أدي ذلك إلى دخول الشخصيات في أزمات نفسية متعددة .

المبحث الثاني
الموت المعنوي

يتلبس الموت بحوادث ومظاهر كثيرة، يُعبّر عنه الكُتّاب تعبيرًا رمزيًا والذي يُعبّر عن الانهيار والانكسار الواقعي للشخصية، هنا يعادل الموت الإحساس بالاغتراب والتيه وفقد الحرية، وهذه صورة تجسدت في الموت المعنوي غير الحقيقي الذي يعيشه الإنسان، ولكنه فقد هويته وأصبح الموت والحياة بالنسبة له كلاهما سواء.

"قد يستعار الموت للأحوال الشاقة، كالفقر، الذل، الهرم المعصية".(١)

"إن الإذلال اليومي، واليأس والبؤس، والشقاء، والفقد، والترمل، واليتم، والجوع، والقهر، والتهجير، الذبح بحسب الهوية وفظائع التفخيخ، وتضاؤل فرص التجارة ودموع طفل يتيم، كلها أحزان سود لونها أسود".(٢)

"الموت هو حالة من حالات الوحدة، تنفرد به روح الميت، وتغادر أهلها وحيدة، والفارق الوحيد هو أن الموت يكون قاصرًا على الجسد، أمّا الوحدة فهي حالة تصيب الإنسان بناءً على رغبته، أو بناء على سلوك الآخرين تجاهه ويعود منشأ الاغتراب في معظم الأحيان إلى علاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه، وما يقوم به هذا المجتمع من محاولة للسيطرة على الفرد وبما يمارسه من أساليب القمع والضغط بغية صهر الفرد ضمن الكل الاجتماعي، وإجباره على تبني منظومة الجماعة الفكرية والاجتماعية".(٣)

لا يصح أن تفكر في الآخرة، وهذا ما يجعلنا سعداء ويحررنا من الخوف، وليس الموت شرًا، لأننا إذا متنا فلا نكون، وإذا كنا فلا نموت وإذا جاء الموت فلا

(١) ابن منظور لسان العربي، ج٢، ص٩٢.
(٢) على السباعي، مسلة الأحزان السومرية، دار الدراويش للنشر والترجمة، جمهورية بلغاريا، بلوفديف، ط١، ص٦٦.
(٣) حليم بركات، نظرا الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ص٦٧-٦٨.

يكون هناك شعور؛ لأن الموت نهاية للشعور، ومن الحكمة ألا نخاف مما نعلم أنه عندما يأتي لا نشعر به".[١]

لقد توزع الموت المعنوي في روايات الكاتب التي يعيشها أبطال رواياته، فنجد شخصية دعاء في رواية يوميات مدرس البنات عندما تتحدث عن فقد والدها الذي سافر وانشغل عنها وعن والدتها وأخواتها.

يقول الراوي: "أشتكي غربتي وسط إخواني، أشكو إهمال أمّي انشغالها عنّي، في النادي، مع شلة الصحاب، حتى في البيت تحتضن أمي التليفون، أشكو إخوتي، انشغالهم عنّي في النادي، لعب كرة القدم، عراكهم، مرحهم، أشكو وحدتي في الغرفة الواسعة الباردة، أشكو أمّي، ألّح عليها، أُقبّل يديها، أن تسمح لي بالنوم في حجرتها، فأنا ابنتها الوحيدة، وأبي مسافر، لكنها ترفض، تُصمّم على الرفض هل أنت صغيرة؟".[٢]

يُجسّد المقطع هنا الموت المعنوي الذي تعانيه الشخصية فلا تشعر بذاتها، وسط دوامة الانكسارات والهزيمة التي تشعر بها، فعندما تفقد أباها وأخوتها وأمها وهم على قيد الحياة، فهذه قمة الألم النفسي والشعور المميت التي تشعر به، حتى وصل بها الحال أن تشعر بغربتها وسط أهلها.

وتواصل دعاء السرد في مشهد آخر، يقول الراوي: "أمام انشغال أمّي عنّي، تحجرت الدموع في عيني، الضبابة الدمعية تحجب الرؤية عن إنسان العين، فتراكمت أمام عينّي أحزان على أحزان، هل وقفت طويلًا أمام أمّي أستجدي عواطفها".[٣]

نلاحظ هنا تجلي خطاب الموت المعنوي الذي يُحيط بالذات في صراعاتها الداخلية التي تسيطر عليها، ولا تجد أحد تحكي له ما يدور في ذهنها.

مثل هذا النوع من الموت الإحساس بفقد الذات الذي تُعانيه دعاء نظرًا لغياب والدها عنها وظلّت تائهة منكسرة، تُحاول الإجابة عن أسئلة كثيرة أثارتها في ذهنها، يقول الراوي: "أين أنت يا أبي ينقصني الكثير لغيابك؟ هل تعرف يا أبي؟ بعد سفرك، يمرّ أكثر من شهر، لا نكاد نجتمع على طعام واحد، الكل مشغول، الكل

(١) ذكي غريب محمود أحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ص٢٥١.
(٢) خليل الجيزاوي يوميات مدرس البنات، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ط١، ص٥٤.
(٣) المصدر السابق، ص٥٥.

يجري على اللحاق بمواعيده، يا للحسرة إنّه سباق على اللاشيء، تأكل أو لا تأكل، لا أحد يهتم بك، نذاكر أو نذهب للدروس لا أحد يتابعك، حتى أصبحت لا أبحث عن أمّي المشغولة دومًا، إلا فقط كي آخذ منها الفلوس! كم أحبك يا أبي؟ متى تعود؟ لم تعد الرسالة الشهرية تكفي لتضميد الجرح بيننا يا أبي! المكالمة التي تعقبها بأسبوع، تأتي قصيرة، أظنّها فقط

لسؤال واحد معاد! هل الحوالة الشهرية وصلت؟ عاوزين حاجة كمان؟" [1]

وتستمر في هذا السرد الحزين الذي جعلها فاقدة لذاتها حتى وصلت إلى مرحلة التسليم والخضوع، وجعلها تشعر دائمًا بالقلق والحيرة، جعلها تقف عاجزة أمام ذاتها، هذا الفقد الذي مثّل للشخصية موتًا زائفًا جعلها تُعاني عذاب الفراق الذي لم تعد تتحمله.

هذا الفقد يجعل الشخصية لا تشعر بالأمان كما كانت من قبل، وهذا المقطع يُبيّن أنّ الكتابة لأبيها كانت عونًا كبيرًا لها حتى تشعر بالراحة وتتخلص من القلق الذي أتت به كثيرًا، نتيجة غياب وسفر والدها، وخيانة أمها له.

ويشير الكاتب في هذه الرواية إلى الموت المعنوي أيضًا الذي تجسّد في شخصية رانيا التي تُعاني فقد أبيها الذي تركها هي ووالدتها وتزوج بامرأة أخرى، وشعرت بحالة من اليأس الذي سيطر عليها وإحساسها بالوحدة القاتلة التي تسيطر على عالمها الداخلي، ولكن لا أحد يشعر بها، يقول الراوي: "قمت إليه، كنت أود لو يأخذني لصدره، يضمني لحضنه، لكنه حتى لم يسلم على بيده، فقد كانت يداه مشغولتين بالولد الصغير! عامله أيه في دروسك؟ قولي، عاوزه فلوس! أردت أن أقول له: أنني في أشد الحاجة إليه، إلى أبي، أن يضمني إليه، أشرب من حنانه، أرتوي من حبه، لكن خرس لساني، شفتاي وقفتا صامتين على باب لساني، تمنعه أن ينطق، أن يطلب شيئًا، أرى أبي الآن يضع يده في جيب روبه الأحمر المزركش بالألوان الزاهية، ترجع يده تمسك ظرفًا أبيض، يقول:

خدي يا رانيا علشان دروسك!

كدت أصرخ في وجه أبي، تمنيت أن أقول له:

يا بابا أنا عاوزاك أنت!". [2]

(١) يوميات مدرس البنات، ص ٥٦-٥٧.
(٢) المصدر السابق، ص٧٧.

هذا النوع من الموت جعل الساردة في حالة عدم الإحساس بذاتها، لا تشعر بقيمة الحياة التي تمثلت لها كسجن يُطاردها، نتيجة فقد أبيها الذي تركها وانشغل عنها، حتى في زيارتها له لم تجد الجو التي كانت تراه من قبل، فقد انشغل بأسرته الجديدة عنها، ولا يدرك مشاعر ابنته المهمومة، ذات المشاعر المنهزمة، في حين أن أمها مشغولة دومًا في العمل، ولا تقترب منها كي تعرف ما بداخلها، وتكشف أعماق فكرها الداخلي المسيطر عليها.

وفي مشهد آخر يتمثل الموت المعنوي في شخصية الأستاذ جميل الشخصية المحورية في رواية يوميات مدرس البنات وهو يشعر بالضيق والألم والحزن الذي خيّم على شخصيته، حتى وصل به الحد إلى محاولة الانتحار عندما اتهمته هناء حسين بالزواج بها سرًا وأنها حامل منه، وتم القبض عليه وألقي به في السجن أسيرًا وحيدًا منكسرًا تطارده الأحزان والانكسارات، يقول الراوي: "تجلس سجينًا تتحرك بالأمر، تتنفس بالأمر، تدخل الحمام بالأمر، هل تعرف كم تعاني من سنوات الذل، والهوان، العار؟ تتمشي في الشوارع، تشير إليك الناس، هذا هو المجرم سفاح البنات، ماذا تفعل؟ تنتحر، تقطع شريان يدك، أو تبتلع سم الفئران، تلقي بنفسك في بحر النيل، تمسح العار عنك".(١)

ويتمثل الموت غير الحقيقي أو المعنوي في شخصية أبي العزم الشخصية المحورية في رواية (أحلام العايشة) وذلك عندما كان يقيم مع أهل سيناء في الصحراء، ولا يستطيع العودة لأهله ومنها شعر بفقد ذاته، نظرًا لما يعانيه من الوحدة القاسية وسط الصحراء، وهو مهموم يشعر بالانكسار والضعف، ويبكي ذكرياته الماضية التي يستعيدها في ذاكرته، يقول الراوي: "تحمل جروحك تبكي صامتًا، تظل ترتق الجراح الثخينة بالآلام، تخفي الوجع الدامي، توجعك تذوبها تمشي تضرب الأرض بقدميك ثبت شكواك لحبات الرمل صامتًا تحمل عظامك الهشة تكاد تنكسر منك، وأنت تجبر آلامك مثل جمل حزين، تغني للموتى، ورحيل الرفاق، الضياع بين مدقات سيناء المتاهات الرملية تنكسر أشياء كثيرة داخلك حلمك مع شادية منصور واللعب على تروس الساقية القديمة الخشبية، حبات التوت الأحمر، جلوسك تحت شجرة الصفصاف على شط الترعة الكبيرة، تخرج من جيبك المدية، تجذب غابة البوص تسوي نايًا جميلًا، تعزف لها لحنًا أسطوريًا:

(١) يوميات مدرس البنات، ص١١٨.

تحت الصفصافة يا شادية ياما غنينا حكايات
قلبي حرّان يا شادية مليان بالآهات"[1]

هذا المقطع يصور مدى الحزن العميق الذي يعانيه أبو العزم، وهو في سيناء، ولوعة فراق الأحبة.

ويستمر الراوي في السرد ليكمل مدى الفراق والألم الذي يعانيه أبو العزم، يقول الراوي:

"ترجح كفتك عند الجميع بميزان عدل الصادقين الواثقين حب الناس، لكن نفسك تمور بالوحدة الفراق، فيغلي مرجلك بنار حطب الذكريات، تئن روحك، ترفرف بين سياج صدرك، تتمزق ضلوعك، تحترق بنيران الشوق، اللهفة الموقدة".[2]

ويتمثل الموت في هذه الرواية بالفقد، وذلك عندما تشاهد سهير وهي حزينة منكسرة، تشعر بالوحدة والاغتراب؛ لأن زوجها تركها بمفردها، وسافر إلى الخارج للبحث عن المال يقول الراوي: "تبكي هي بدموع حارقة وصوت عالٍ، يقول الراوي: "يتقطع القلب عليها ينتفض جسمها، ترتعش شفتاها! هجرني سنين طويلة، عشان الفلوس، طيب أعمل إيه في الليالي الباردة! والله كل فلوس الدنيا تغور! ده نفس الراجل في البيت ما تساويه ملايين الدنيا كلها".[3]

وتصور الرواية جانبًا من جوانب المأساة التي عاشها الإنسان المصري بعد نكسه ١٩٦٧م، حيث الشعور بعار الهزيمة وانتشار الهموم والأحزان التي خيمت على المواطنين المصريين، ويقول الراوي: "تهز رأسك الممتلئ بالهموم والألم الذي ازداد مع قدوم الليل البهيم، وأنت محاصر بعار النكسة وزهو جنود الصهاينة الذين يأكلون طريق الإسفلت تيهًا وعربدة، وبين آلام الجراح القديمة التي تندمل على وجع الأحبة".[4]

يُجسّد المقطع ما عاشه أبو العزم من الشعور بالانكسار والذل والعار الذي لحق بهم أثناء الحرب من ناحية وما يصاحبه من آلام وأحزان على فقد الأحبة من ناحية أخرى.

(١) أحلام العايشة، ص ٢٠ -٢١.
(٢) المصدر السابق، ص٣١- ٣٢.
(٣) المصدر السابق، ص٨٤.
(٤) المصدر السابق، ص ٩٥.

ويستمر الراوي في السرد ليوضح للقارئ أن العدو الصهيوني نجح في سلب حرية المصريين وإخماد روحهم المعنوية أثناء الحرب، هذا العدو الذي أفسد حياة المصريين بالهم والحزن، يقول الراوي: "لقد نجحت تلك الجماعات المتنمرة أن تقتل الحريات وتضعف الروح الثورية بين الشباب، الذي ارتوى من ماء الثورة، وتنفس هواء الحرية النظيف! فهل كان حصاد تلك الجماعة أن تشرب مرارة الهزيمة؟

"أم كان ذلك نتيجة طبيعية لعبث الجماعة المتنمرة؟ التي باتت تحرس مقاعد السلطة أكثر من

حراسة الوطن والسهر على حمايته هؤلاء قتلوا فينا الكرامة والتطلع نحو الأعلى والأسمى شموخًا وعلوًا، وأبوا علينا أن نفرح بعد طول حزن".(١)

وفي مشهد آخر يوضح الكاتب الاختلاف بين حال أهل البلدة قديمًا وحديثًا، كأنّه يحاول أن يشرح أسباب الهزيمة التي حلّت بمصر أيام نكسه عام ١٩٦٧م، كما أنه يوضح أن الكل يعيش حالة من الموت المعنوي الذي يتمثل في الفقد، فقدهم الحرية ويقول الراوي: "يرحم الله أيام القائد الفذ العظيم أحمس ملك طيبة، يُحارب، يُحقّق الانتصار الساحق ضد الهكسوس، ويطردهم شر طرد، لكن والحق يقال: إن الذي كان يشغل حال أهل قريتنا ويؤرق نومها، تلك المعارك الطاحنة، موقعة التحطيب الكبرى التي يقودها الآن، بجداره الشيخ فياض أبو سالم الأهلاوي وجماعته ضد الشيخ عباس أبو عمارة الزملكاوي في الوسعاية، وكل يوم أمام عيون أهل العايشة".(٢)

ويتمثل الموت المعنوي في لجوء الأب إلى حكاية من حكايات الأساطير الشعبية، كي يحمي ابنه من الجري وراء الفتيات والشهوات، وهو الأمر الذي يصاحب المحن والأزمات في أغلب الأحيان، حيث إجبار الأب على أن يأكل ابنه قلب الذئب الذي قتله ويشرب من دمه، وذلك لحمايته من الضعف أمام شهواته ونزواته مع الفتيات.

يقول الراوي: "امسك يا عاشق البنات!

كُلْ حتى يتطهر قلبك من الحب والعشق!

(١) أحلام العايشة، ص٩٧.
(٢) المصدر السابق، ص٢٦.

كُلْ حتى تعبر جسر المراهقة!

كُلْ حتى لا تكون مغلوبًا على أمرك أمام مردة شياطين الحب واللذة، تأكل وتأكل حتى تلعب روحك تراه الآن يتقدم منك يضربك على أم رأسك بالساطور خفيفًا، تفقد الوعي".[١]

يُبيّن المقطع الأسطورة الشعبية التي لجأ إليها الأب لحماية ابنه من الوقوع في حبّ الفتيات في فترة المراهقة، كما أن الموت المعنوي يتمثل في الحزن، وخيبة الأمل التي تصيب الإنسان، وهذا ما يدفعه في بعض الأحيان إلى الرغبة في الموت؛ ليظل محتفظًا بحبه للأرض التي تغير حالها وحال أهلها، وهو ما يصوره الراوي في المشهد التالي: "تهبط من القطار، تهز رأسك في حزن، وأسى تُصمّم أن تجلس على الدكة وتحت الجميزة، تمتلئ عيناك بالدمع، تبكي عزيزة التي ماتت، مكانك بالضبط، تسخر من السنوات التي تفرّ، تتقلب بين أصابعك، وأنت تقلّب الصحف التي تمتلئ بالكلمات الباردة، تشم برائحة تكرهها، تمضغ الكلمات الباردة والتي يلحون عليها، ويطلبون أن تتسامحوا، وتتصافحوا، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال".[٢]

وفي مشهد آخر يسرد الراوي الموت المعنوي للتعبير عن مدى عمق الحزن الذي تعانيه الشخصية المتمثلة في أبي العزم الذي رأى عالمًا غير العالم، كل شيء تغيّر إلى العكس.

ويسرد الراوي في مشهد مأساوي حزين يشي بمدي الإحساس بالهزيمة أمام الذات وصدمته مما حوله يقول الراوي" تبصق مرارة وحزنًا وأنت تنظر حواليك تري دنيا غير التي كنت تحارب من أجلها، وكلامًا مكروهًا غير الذي كنت تنزف لأجله وكدت تموت، تنظر للقهوة في عجب ودهشة، وقد امتلأت عن آخرها بالشباب، والرجال والشيوخ".[٣]

يقول الراوي: "من ترى يحمل الآن عبء الهزيمة فينا؟

المغني الذي طاف.

يبحث للحلم عن جسد

يرتديه؟

(١) احلام العايشة، ص٤٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٦٥.
(٣) المصدر السابق، ص١٦٥.

أم هو الملك المدعي أن حلم المغني.
تبدى فيه
هل خدعت بملكك حتى.
حسبتك صاحبي المنتظر؟
أم خدعت بأغنيتي.
وانتظرت الذي وعدتك به.
ثم لم تنتصر"
أم خدعنا معًا بسراب الزمان الجميل؟".[١]

هذا المقطع يوضح فقدان الأمل وكأنه كل ما يعيشه الإنسان هو حلم يضيع مع لحظة اليقظة والإفاقة من الحلم ومن هذه الألفاظ التي أوردها الكاتب مثل (الهزيمة، الحلم) ثم يأتي في النهاية ويُعبّر عن أقسى المشاعر نتيجة ضياع الحلم والأمل والفقد الذي يشعر به الإنسان، وهو ما يريده الكاتب أن يمزج بين الحلم وضياعه.

ما أقسى أن يعيش الإنسان وهو لا يشعر بصفو الحياة يعيش وكأنّه ميت، يمارس أعماله ولا يشعر بذاته هذا ما حدث مع سهير الراقصة التي كان يتردّد عليها سعيد في منزلها، هذه الشخصية تحمل لديها الكثير من الرغبات المكبوتة داخلها، تعيش بمفردها وزوجها يسافر ولا ليس لديها أولاد، وتحكي بكل ألم وحرقة مدى تأثرها بهذا الموضوع وأنها بذلت أقصي ما في وسعها، لكن لم يُقدّر الله سبحانه وتعالى الإنجاب لها، تحكي والدموع تفرّ من عينيها، كأنّها حبيسة لسنوات طويلة، تنظر للسماء البعيدة، تعانق بعينها شواشي النخل العالي، تؤكد بصوت عال يقول الراوي:

كان حُلمي بوسع الدنيا دي كلها.

أبوي الله يسامحه جوزني بعد الإعدادية على طول، وحياتك يا سعيد كنت جايبة مجموع كبير قوي. نصيب بقي ومكتوب، خمس سنين، ولم أفقد الأمل دكاترة، مشايخ، زار، عديت سبعة بحور، نمت ليلة في حضن ميتة، تمرغت في تراب الكنيسة تحت صورة العذراء مريم.[٢]

(١) أحلام العايشة، ص١٧٥.
(٢) دراسة نقدية للدكتور محمد على سلامة.

وتكمل في لهفة مشحونة بالألم والحزن، التي تكشف عن عمق الموت الداخلي التي تشعر به "صدقني يا سعيد كنت أتمنى أعيش في عشة بوص جنب الوسعاية بس ربنا كان رزقه ب أحمد ومحمود وأسماء، أولاده منّي أنا، ما فيش نصيب .. مكتوب، قسمتي كده!".(١)

الشعور بالغربة والوحدة من صور الموت المعنوي الذي تمثل في شخصية سعيد في رواية الألاضيش، كانت تدور في رأسه عدة أسئلة لا يجد إجاباتها إلا عند الشيخ يوسف حارس جنينة العبيد، لكن في بعض الأحيان لم يصادف كلام الشيخ هوى أو صدى في عقله يقول الراوي: "إنه ينام وهو يقظ، وتظل أفكار رأسه تروح وتجيء، وهي قلقة بالأسئلة الحائرة، ويشعر وهو يجلس وسط أهله وأصحابه بالغربة والوحدة يحرص يومًا بعد يوم، أن يذهب للشيخ يوسف يسأله، يناقشه يجادله مستفسرًا حتى تهدأ رأسه من وقدة الأسئلة المشتعلة داخله، ولم تخمد الوقدة داخل رأسه، بل ربما تزداد اشتعالًا".(٢)

هذا المقطع يبرز فقد الذات الإنسانية أمام نفسها للبحث عن الحقيقة التي يبحث عنها، لكنه لم يجد إجابات لأسئلته الكثيرة التي تدور في عقله، وفي مشهد آخر يختلط الموت المادي والموت المعنوي وذلك تمثل في موت الرئيس جمال عبد الناصر من ناحية والحزن الذي يخيم على سعيد بركات من ناحية أخرى وما أوقعه في ألم شديد وحزن عميق نظرًا لحبه الشديد لعبد الناصر، يقول الراوي: "سعيد بركات يلطم خديه وهو يصرخ، ويبكي بكاءً مريرًا، يضرب كل شيء بيديه وقدميه، يقذف بيده كل ما تحمله تربيزة السطح، حاول أن يحمل التربيزة نفسها، ويقذف بها من فوق السطح، وهو يبكي ويصرخ، وأحمد الشافعي ومحمد العمدة وجابر بيكون معه الرجل الذي شرب معه الجميع ماء الحياة الكريمة وتنفسوا هواء الحرية، حتى تشنج سعيد ووقع على السطح".(٣)

ولا يتوان الكاتب في جلب مشاهد الموت المعنوي بصورته القاسية كما تحدث على أرض الواقع، ونجد في شخصية هبة منصور الصياد الشخصية المحورية في رواية مواقيت الصمت التي تستدعي صورة الأب المتوفي بقوة

(١) الألاضيش، ص٥٤-٥٥.
(٢) المصدر السابق، ص٦٧.
(٣) المصدر السابق، ص١١٣.

الخيال تحدثه ويحدثها، وهو يحكي لها عن مأساته التي كان يعانيها مع زوجته ومدى الإحساس بالعدمية، يقول الراوي:

"آه يا ابنتي ما أشقى الإنسان حين يعيش في بيته مهزومًا!

تسأليننى لماذا رضيتِ بكل هذا؟

أو لماذا طالت مواقيت الصمت؟!

يصمت أبي وهو يفكر ثم يهزّ رأسه مُعقبًا:

مواقيت الصمت إنها رواية عبثية، عشنا أحداثها أنا وأنتِ يا ابنتي، لماذا لا تعيدي ترتيب

كتابة أحداثها؟

ولماذا لم تبدأ مواقيت الكلام بعد؟!

لماذا لم تسألي نفسك هذا السؤال؟"(١)

صور الكاتب هنا الصمت كنوع من أنواع الموت المعنوي، وذلك عندما صمت الأب وحاول أن يبتلع كلام زوجته القاسي له، حتى يحافظ على أسرته.

هبة التي تعاني من تلبس روح أختها التوأم، ظلت تعيش بروح أختها هند الميتة وسيطرت روح الأخت عليها حتى أفقدتها المتعة بحياتها، وجعلتها في حالة تأزم نفسي طيلة أحداث الرواية، تحاول تعكر صفو حياتها وتسخر من انكساراتها وهزائمها في الحياة، وهي لا تستطيع الفكاك من هذا الحصار الذي لازمها طوال أحداث الرواية، وهذا ما يعبر عن الموت المعنوي الذي أصبحت تعيش هبه لا تشعر بذاتها، فاقدة لشخصيتها تمامًا وتعيش بروح أختها المتوفاة.

يقول الراوي: "إنني أشعر بها، حين أسكن أنا، تتحرك هي، أقفل نفسي، أحس بها، تأخذ نفسها من فمي! أتحرك، تسير خلفي، كأنها تطاردني، أقف، تستدير، ناحيتي لتتأملني، أسمعها تسخر مني تضحك على انكساراتي، هزائمي الكثيرة، أنظر إليها، زواجها تنفلت مني، تفرّ هاربة تقف بعيدًا، تراقبني تخرج لسانها كل فترة! أغمض عيني أستدير، أتلفت حولي أجلس على الكرسي القصير أمام مرآة التسريحة، أسمع صوت تكسر زجاج المرآة، تخرج أدعوها للتصالح معي لا تزال ترقبني بحذر!(٢) وتكمل في ألم وحزن عميق يأتي بها، وذلك لأنها في حيرة شديدة، لأنها روح أختها

(١) خليل الجيزاوي مواقيت الصمت، الدار العربية للنشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ص٢٨.
(٢) المصدر السابق، ص٤١-٤٢.

ظلت تطاردها في كل مكان، لكن هبة تحاول أن تبحث عن حريتها التي سلبتها منها روح أختها لكنها لا تجدها في أي مكان.

يقول الراوي: "أبتسم، تبسم، أضحك تضحك عاليًا، أقهقه، تجلجل بصوت عالي، أنتهز هذه الفرصة الشحيحة بلحظات الصفاء، أقترب منها، ألمس يدها، أشجعها، تقترب أكثر، أسألها هامسة:

لماذا كل هذا الغضب مني، لماذا تكرهينني إلى هذا الحد؟! إني لم أكن أنانية أبدًا!".(١)

وفي مشهد آخر تسرد أم شحته حكايتها بصوت واهن وحزين حكاية ابنها شحته الذي ألقي به في السجن ظلمًا في قضية المخدرات، وذلك لأنه من الطبقة الفقيرة التي لا تستطيع أن تقول لا فتضطر إلى الصمت الذي يؤدي بها إلى الهلاك، أمام المجتمع السلطوي الذي لا يعرف الرحمة والرفق بالفقراء.

يقول الراوي:

وعلى لسان أم شحته "المعلم الكبير قبضوا عليه عملوا اجتماع! مين يشيل القضية! الكبير لازم يطلع! والصغير لازم يقول حاضر! السيد يأمر، الخدام ينفذ! وشال شحته قضية المخدرات".(٢)

وتسرد حكايتها في صمت حزين وكأن المقطع يخبر القارئ بعدم الصمت، لأنه يؤدي إلى الهلاك وتسرد حكايتها لهبة، يقول الراوي: "الخدام لازم يعيش طول عمره خدام تنظر للبعيد، على صورة الحائط تكمل: ياه.. الله يسامحك يا أبوي! لسه في وداني صوت أمي، بتعيط هناك، بالليل، كنا نايمين في بيت فلاحي بسيط، لكن دافئ بحضن أمي: يا عم عيب، تطلع البنت من المدرسة، عشان تخدم في بيوت مصر! يرد أبوي، وعينه مكسورة، العيال كثيرة والمصاريف زي ما أنت عارفة! وبعدين نص بنات الفلاحين بيشتغلوا في مصر!"(٣)

يجسد هنا المقطع صورة الموت المعنوي في الصمت الذي يرضخ له الجميع، بداية من الأب الذي عاش مع زوجته مهزومًا منكسرًا، والابنة التي تشعر بفقد ذاتها، وشحته الذي صمت ووافق أن يلقي به في السجن ولا يستطيع البوح؛ فهذه ثقافة الصمت السائدة في الرواية، التي يريد الكاتب إيصالها للقارئ.

(١) مواقيت الصمت، ص٤٢.
(٢) المصدر السابق، ص ٦٥.
(٣) المصدر السابق، ص٦٦.

وتكمل أم شحتها حكاية ابنها، يقول الراوي: "هوب البوليس كبس، المعلم الكبير قبضوا عليه، لكن شحته اعترف على نفسه وشال القضية لوحده، دخل شحته السجن! تبكي بحرقة مؤلمة". ٣١

وعندما عادت هبة من باريس إلى مصر وجدت الكل في حالة من الصمت، وهي تحاول أن تجد ذاتها، وجدت أناس غير الناس كل شيء تحول إلى دخان لا تشعر به، وهي تحاول أن تبحث عن الحقيقة التي يحاول الجميع، أن يخفيها عنها، يقول الراوي: "أفكر في نفسي: ومن يرمم انكساراتي، هزائمي الكثيرة والمتتالية".(٢)

وتستمر هند في سردها لتعبر عن عمق المأساة الإنسانية التي تعيشها، يقول الراوي: "أهز رأسي حسرة على فرّ الأيام والسنوات، أفكّر في نفسي"(٣).

هكذا تعيش هند التوأم الحي في عالم مضطرب، وحياتها تكاد أن تكون مليئة بالصراعات النفسية، مما يجعلها فتاة غريبة عن نفسها، كل هذا دفعها إلى حافة الجنون.

وتواصل سردها لسعيد الذي أحبته وسلمت نفسها له حتى فقدت عذريتها، وهي من صغرها تبحث عن الحرية في كل مكان، يقول الراوي: "منذ أيام السنية الثانوية وأنت تعلم، أبحث عن حريتي، أفتش عنها، أدافع ديكتاتورية أمي، أعترف أني نجحت قليلًا، وفشلت كثيرًا في صدر المعارك، أو حسمها لصالحي، لسبب بسيط أنها أمي، كنا نجد العزاء، عندما تقرأ، أنا وأنت منهم رواية إحسان عبد القدوس "أنا حرة" هل تتذكر؟"(٤)

هذا الموت الذي تجسد في فقد الحرية التي سلبتها منها أمها، التي ظلت تعاني كراهيتها هبه رمزًا لما تكره هند، وقد استطاعت أن تنتصر عليها وتحقق ذاتها.

الصمت الذي نسميه في هذه الرواية الموت المعنوي يمارس الموت المعنوي هبته فلا تجد الذات نفسها إلا وهي في طريقها إلي الزوال والفناء وسط دوامة الهزيمة، وحالة تربص دائم للموت الذي يتلقف كل من قطع اتصاله بهذه

(١) مواقيت الصمت، ص٧٢.
(٢) المصدر السابق، ص٨٥.
(٣) المصدر السابق، ص٨٧.
(٤) المصدر السابق، ص٢٢١.

الحياة، وأوقع في النفس شعورًا بالعدمية، وبذلك دخلت هند في النهايات الخاسرة والانهيارات النفسية التي تعانيها، الكل يرضخ للصمت، وقضية أطفال الشوارع الذي يعانون في حياتهم يقول الراوي: "يعيش الصمت الداخلي كل هذا دفعها لمجموعة تساؤلات كي تجد إجابة عليها "كيف يمكن الحديث/ التحدث عن علم اجتماع الصمت، من خلال الصمت نفسه، حيث ينقطع الكلام عن التداول أو الاستعمال؟ وكيف يمكن التعرف إلى الآخرين وهم صامتون؟

وهل يشكل الصمت أو يخلف معنى، يساعدنا في الكشف عن حقيقية اجتماعية، مجتمعية معينة؟

لتوضح أولًا/ بداية، قائلين: ليس علم اجتماع الصمت، بحثًا في صمت الناس، وإنما هو بحث في:

لماذا يصمت الناس؟!

وما الذي يدفعهم للصمت؟!

وعلى أي أساس يلتزمون/ يمارسون الصمت؟".[1]

الموت ليس قاصرًا على الميت فقط، بل الذين هم على قيد الحياة، هذا ما يظهر، الكاتب في رواية سيرة بني صالح وهو موت الأم الذي خلف وراءه الآلام والأوجاع للابن وجعله يشعر بالحزن والفقد حتى خيل له أمه أمامه أكثر من مرة تحدثه ويحدثها، كلما تذكرها يصرخ باكيًا، ويتمني أن تعود الحياة مرة أخرى يقول الراوي: "كنت كل مساء أبص للشمس، الطيور المحلقة في رحلة العودة أقول راجيًا باكيًا: عودي يا أمي، لا ترحلي مرة أخرى!"[2]

ويرصد الكاتب في رواية (أيام بغداد) أحوال الفقراء والبسطاء الذين أراد والعيش في بلاد بعيدة، فذهبوا من مصر إلي العراق هربًا من حالة العوز والفقر الذي يقتل أصحابه في بلد كانت قديمة ملجأ للفقراء والمهمشين، وذلك من أجل أن يعيشوا حياة كريمة، يقول الراوي: "يا الله... يالها مع زفرة حارة تخرج من فمه، عندما شاهد بداية تحرك الطوابير الهائلة، وأبت الشمس الحارقة أن تصب سعيرها على أهل الأرض الذين كفروا بهذا الوطن الكاره لأهله الذي يرميهم للعراق، يقذف

(١) مواقيت الصمت، ص٢٧٧.
(٢) سيرة بني صالح، ص٤٤.

بهم في آتون جهنم وبأوراق رسمية والحرب مشتعلة على البوابة الشرقية وقودها الفقراء".[١]

يرسم الكاتب هنا في هذا المقطع صورة المصري المسافر إلى العراق ويقول الراوي: "يسافرون على أرجلهم المتعبة ومنهم من يموتون ميتة رخيصة فيعود دون على ظهورهم من صناديق الموت المغلقة، فقط ليدفنوا في ترابها المقدس، أي وطن هذه؟! وأية أرض مقدسة هذه؟!"[٢]

صور الراوي صورة المصريين المسافرين إلى بلاد العراق سعيًا للرزق، وهذه الصورة لا تختلف كثيرًا في العراق عن مصر، وذلك بسبب الحرب الإيرانية في ذلك الوقت فالفقر في مصر يقابله الخوف والخطر وفقدان الأمان والقلق الذي يواجه المصري المغترب في بلاد العراق.

تُعدّ الرواية بمثابة المرآة التي ألقت الضوء على القضايا السياسية والاجتماعية والتعليمية، منها الحرب التي شكلت مصدر إلهام الكتاب في ذلك الوقت، ويرصد الكاتب في روايته أيام بغداد عن الواقع السياسي المأزوم في العراق الذي نتجت عنه ضحايا كثيرون من الشعب العراقي.

يقول الراوي: "اعتدل الحاج عبد الرحمن في جلسته، أخذ نفسًا عميقًا ونظر من نافذة السيارة ثم قال: المرأة العراقية هي وريثة عشتار الجميلة، عشتار هي إلهة الجنس والحب والجمال والتضحية في الحرب عند البابليين".[٣]

هنا ربط الكاتب المقطع الروائي بين عشتار آلهة الجنس والمرأة العراقية، حيث ربط بينهما في التضحية بالحرب، وهذا الربط يشير إلى وضع المرأة العراقية التي تعاني من قسوة ومرارة الحرب العراقية الإيرانية، كما أنها تعاني من مسئولية الأسرة ومن جانب آخر تحرم من غريزتها الأنثوية التي تحتاج إليها، يحاول الراوي إخبار القارئ أن المرأة ليست بالخاطئة في أفعالها، وإنما هي حالة طبيعية تمر بها نتيجة لحالة الحرب التي تمر بها البلاد.

(١) أيام بغداد، ص٥-٦.
(٢) المصدر السابق، ص٦.
(٣) المصدر السابق، ص١٣٥.

يقول الراوي: "عشتار تصور على هيئة امرأة عارية، تركب وحوشًا، وهي إلهة الحرب والحب في بابل القديمة وتجمع بين الجنس الإباحي والإجرام الدموي".[١]

يعبر العري هنا عن حالة الفوضى التي نشبت نتيجة الحرب العراقية، وعن ضحايا الشعب العراقي الذي يتعرى مع كل طلقة نار ضد العدو، والوحوش هم شباب العراق أو الوطن الذين فقدوا حياتهم في الحرب، وذلك بسبب الموت الذي يحلق فوق رؤوسهم، وعلى الرغم من أن عشتار إلهة الحب فإنها تحولت لصورة الإجرام الدموي الذي يسعى كل لحظة إلى الارتواء الدموي.

يقول الراوي: "هل تعرف أسطورة إبليس الذي سرق السلام من الحياة".[٢]

كان سؤال الحاج عبد الرحمن هنا للتوضيح للشاب المصري لتأكد أن السلام تم افتقاده في هذه الحياة، فانطلق الناس يغدرون بعضهم بعضًا، ويقتلون بعضهم بعضًا ومن ناحية أخرى سكن القلق والتوتر والخوف الأرواح وغيرها للأسوأ، ومن هنا انتشر الدم في كل مكان، يقول الراوي:

"يا إبليس يا إله كل شر ويا عدو كل خير: فلنسرق السلام فالإنسان يبحث عنه في كل مكان".[٣]

يجسد المقطع هنا أن كل ما يحدث في العراق في ذلك الوقت كان نتيجة غياب السلام الذي سلب السلطة من الشعب العراقي.

كما أن الموت المعنوي يتمثل في الفشل والفقر والضياع والفقدان، وفي شخصية خالتي بهية تشعر سميحة الماشطة بالفقدان والوحدة في حياتها، وذلك لوفاة زوجها، وهي تعيش مع ابنتها تشعر بالوحدة والغربة وسط أهلها، يقول الراوي: "بيت الماشطة كله أسرار، وأول سر سألته سميحة عنه أمها عزيزة: ليه يا أمي أنا وحيدة وما عنديش أخ أو أخت؟!

يومها اختنقت أمها وغلب عليها البكاء، ولم تستطع أن تبوح لابنتها بالحقيقة، والحقيقة ليس معها أو عندها دليل بعض حكايات سمعتها من جدتها، أن هذا البيت مكتوب عليه لا يعيش فيه الرجال فترة طويلة، يدوب تتزوج المرأة في هذا البيت، سنة أو سنتين وتخلف البنت الوحيدة، وفجأة الرجل الفحل يموت غرقًا

(١) ايام بغداد، ص١٣٥.
(٢) المصدر السابق، ص١٣٥.
(٣) المصدر السابق، ص٣٧.

في المصرف الكبير، أو تضربه سيارة على طريق الزراعية الأسفلت، أو يلطشه القطار، وهو يعبر مزلقان السكة الحديد للبلد، كأنه مغيب أو سكران، ومسحت أمها دمعه ساخنة، وتكتم ما سمعته من جدتها ذات عصرية".(١)

هذا المقطع يجسد المأساة التي تعيشها سميحة وهي تروي حكايتها لابنتها.

وتمثل أيضًا الموت بصورته المعنوية في رواية البومة السوداء، وذلك تمثل في حزن الجدة على أبنائها الثلاثة وزواجها، حيث كانت تقوم بسرد حكايتها مع حفيدها، وكانت تسرد له ما كانت تعانيه في الحياة من موت الأبناء والزوج، وعن قسوة وصعوبة الحياة، وما تعانيه من ويلات وأحزان وصراعات داخلية حزينة، يقول الراوي: "تضمني جدتي لصدرها قائلة: رحلتي يا ولدي مع الحياة كانت قاسية، فقد حننت علينا الدنيا أن تفرح بالنبتة الصغيرة في حديقة العمر، وهل عندما يكبر العود تتفتح أزهاره، ويبدأ يثمر، تعذبنا الدنيا به، وتحرمنا منه، وهو لا يزال برعمًا صغيرًا، وعودًا أخضر، ما أقسي هذه الدنيا التي تلعب بنا، وما أقسى حجارتك أيتها القاسية وكأن قلبك يا دنيا قد من حجر".(٢)

وتستمر الجدة طوال أحداث الرواية في الحكي لحفيدها وهنا ما يعبر عن عمق الحزن والألم النفسي الذي تعاني إياه، يقول الراوي: "الأم التي كانت تتمني أن يطول عمر ولدها ليحمل نعش أبيه وأمه إلى مثواهم الأخير، ويأخذ العزاء بيده أمام الأهل، كنت أتمنى أن تقطع يدي أو تشل ولا أدفن ولدي في القبر طول عمري".(٣)

يجسد المقطع هنا معاناة الجد عندما فقدت أبنائها وكم كانت تتمني أنها تموت قبل وفاتهم ليوسدوها مثواها الأخير، وهذه الصورة تعبر عن اليأس الذي سيطر على الجدة، وذلك لأنها دفنت أبناءها بيدها وما أقصى هذا الشعور لدي الأم عندما يموت أبنائها في حياتها.

وفى مشهد آخر تصرخ الجدة بداخلها لكنها لا تستطيع البوح بما تشعر به، وذلك بعدما تيقنت أن نبيلة الساحرة، قد فعلت أعمالًا سحرية لابنها في ليلة عرسه وذلك بعد ما رأى أشياء غريبة في حجرته مثل قط أسود كبير ينام فوق سريره، ورجل أسمر يلبس ملابس سوداء ويقف على باب الغرفة وعيناه تشتعل فيهما

(١) خالتي بهية، ص١٣٩- ١٤٠.
(٢) البومة السوداء، ص٥١.
(٣) المصدر السابق، ص ٦٨.

النيران، يقول الراوي: "خرجت من قاعة خالك، ودمي يغلي ويفور، لأفتح باب الدار الخارجي، وأقف أمامه، ولساني يصرخ داخل حلقي:

آه يا بنت الكلاب، آه يا نجسة، آه يا ملعونة كم أنت ملعونة يا ساحرة يا شريرة، قتلتِ فرحة ولدي في ليلة العمر.

آه يا بنت الكلاب: من تملكني الآن رقبتك، وكنت أقف أصرخ صامتة: يا ناس يا هووووه".[١]

وظلت الجدة تطارد الموت الذي يُحلّق فوق دارها، حتى لا يهبط مرة أخرى، وذهبت لكبار المشايخ كي تحاول أن تفسد الأعمال السحرية التي تفعلها نبيلة الساحرة، وكادت أن تموت الجدة كل يوم، وذلك بعد مرض ابنها الأكبر إبراهيم الذي نجحت نبيلة الساحرة في إيذائه وموته، يقول الراوي: "كنت أموت كل صباح، وأنا أري خالك إبراهيم يطارد الموت، فيذبل ويضمر أطرافه، وكنت أضع رأسه في حجري، وأبلل شفتيه بمنديل مبلل بالماء أرفع يدي وأذان الفجر أخلع غطاء رأسي، وأقول يا رب يا جابر المنكسرين أجبر كسر ولدي".[٢]

أخذت تدعو لابنها بالدعاء لله ليحفظه ويبعد عنه أخطار نبيلة الساحرة الشريرة التي تريد الانتقام منهم جميعًا واحدًا فواحدًا.

وتستمر الجدة في الحكي لحفيدها عن الأعمال السحرية التي كانت تعانيها يقول الراوي: "وكنت طول مدة طريق العودة من طنطا أصرخ داخلي ودمي يفور، وكانت عيناي تمتلئان بالدموع الحارة، وتخرج من فمي ألسنة من النيران المشتعلة وكنت أصرخ وفمي يقذف الشتائم صامته:

رجم بالحجارة، وهل أصبحنا كفار يا بنت الكلب؟!

آه يا ملعونة يا كافرة يا ريت كنت قتلتها، يوم ما دخلت على الدار لتعزيني في وفاة ابني إبراهيم، كنت خلصت البلد والدنيا كلها من حقدها وشرها الأسود".[٣]

هذا الموقف المرير من حياة الجدة، حيث قامت باسترجاعه وسرده، وهذا الموقف يظهر لحظات رؤيتها للموت وهنا ما يعبر عن الألم والمعاناة التي عاشتها، وكثرة صراعاتها مع نبيلة الساحرة.

---

(١) اليومة السوداء، ص٧١.
(٢) المصدر السابق، ص٨٦.
(٣) المصدر السابق، ص١٠٨.

وتستمر الجدة في السرد لحفيدها ومعاناتها التي ظلت تقاسي ويلاتها، حاولت أن تنتصر على نبيلة الساحرة بذهابها إلى المشايخ وذلك لفك السحر الأسود الذي طال أبنائها وأفسد عليها حياتها، حيث لم ينجح الشيخ في فك السحر الأسود للابن الثاني جمعه الذي اقترب منه الموت، وهي لا تستطيع أن تطرده عنه، حتى شعرت أنها ضعيفة ومهزومة بانتصار سحر نبيلة الشريرة التي أفسدت عليها حياتها، يقول الراوي: "أدركت أن الموت بات قريبًا جدًا من خالك، صرخت فزعة وبكيت صامته، نعم تأكدت أنني هزمت للمرة الثانية.(١)

هذا ما قصده الراوي انتصار نبيلة على الجدة في وفاة ابنها الأول والثاني.

كما صور الكاتب الموت المعنوي في حالة الفقد والحزن وهو ما كانت تعانيه الجدة، حيث إنها كادت أن تموت حزنًا، على فقدان ابنها الأصغر حميدو وهي تقول على لسانها يقول الراوي: "وعلا صوتي بالبكاء والصراخ، أصرخ من وجعي على موت آخر أولادي، أصرخ من النيران التي اشتعلت في رأسي وصدري وجلست على الأرض أحمل التراب فوق رأسي وأصرخ: آآآآه يا ولدي، آآآآه يا كبدي، آآآآه يا عمري".(٢)

هذا المقطع يُصوّر ما كانت تحمله الجدة من الأسى والحزن وعبر به الكاتب بلفظ آه التي توحي بالألم النفسي الذي تشعر به حزنًا على أبنائها الذين رحلوا في ريعان شبابهم.

أصبحت الجدة فاقدة لذاتها بعد وفاة أبنائها لا تشعر بلذة الحياة وصفوها، أصبح الموت والحياة شيئًا واحدًا بالنسبة لها، والحياة لم تعد تساوي شيئًا وعلى لسانها، يقول الراوي: "وشعرت بأن الموت أصبح قريبًا جدًا منى طوال هذه السنة، كأنه لا يريد أن يترك تلابيبي، حتى خطف مني خالك حميدو، وكنت أصعد فوق سطح الدار أنادي على الموت بصوت عالٍ طوال الليل أيها الموت، أيها الموت أين أنت؟ تعال وأخطف روحي، لأنني بعد موت الأحبة لم يعد لوجودي أية فائدة".(٣)

وبعد رحلة طويلة تحكي الجدة للحفيد حكاية موت أبنائها الثلاثة، تموت، وبموتها شعر حفيدها بأنه يعيش غريبًا في دنيا غير الدنيا التي كان يعيشها مع جدته في بيتها شعر أنه تائه في فضاء فسيح لا يشعر بصفاء الحياة له حتى في وسط

(١) اليومة السوداء، ص١٢٧.
(٢) المصدر السابق، ص١٩٥.
(٣) المصدر السابق، ص١٩٨.

إخوته، شعر بأن البيت أصبح مثل السجن لا يطاق، الذي لا يجد فيه غير الحزن والانكسار والهزيمة التي لحقته بموت جدته، وذلك لأنها كانت تحبه أكثر من إخوته وتفضله عليهم.

يقول الراوي: "وفي دار أبي كنت أعيش نصف حياة، وحيدًا غريبًا في دنيا، أخرى زائفة لا أعرفها، ولم أعرفها أو أسمع بها من قبل، دنيا غريبة عني، لا أتبين ملامحها، ولا أعرف دروبها، حياة مريضة ودنيا مشوهة كأنها ماتت من قبل، دنيا صماء عجفاء عرجاء لا حياة ولا روح فيها، هكذا كنت أسكن في دار أبي وكأنني في سجن كبير بلا قضبان".(١)

ويستمر الحفيد في سرده ليبين المعاناة التي عانها بعد وفاة جدته، وحياته التي أصبحت غريبة ولا فائدة منها حيث شعر بأنه غريب عن إخوته، وهم غرباء عنه، وحيث الضوضاء في بيت والده، والهدوء والراحة في بيت الجدة، كان يشعر بأن الفرق كبير بين أبيه وبين بيت جدته، كان يجلس في بين أبيه وحيدًا ومنعزلًا عن إخوته وضجيجهم الذي يعلو البيت، وكان يبكي صامتًا، عندما يسترجع ذكرياته مع جدته التي كان يعيش معها، يقول الراوي: "الحياة رحلة قدريه يا ولدي، وكانت جدتي قدري، ورحلت في الحياة ارتبطت بحياتها ارتباط الجنين بأمه عن طريق الحبل السري، وطول الوقت كنت أشعر أن الحبل السري لا يزال ممتدًا ومتصلًا بيني وبينها، كنت أسكن في دار أبي وأمي ووسط إخوتي لكني كنت أشعر أن الدار ليس داري، وكنت أختنق وينقبض صدري، كانت أصواتهم عالية وصاخبة وكنت قد تعودت على الهدوء في دارها".(٢)

يبرز المقطع هنا قوة العلاقة التي تربط الحفيد بجدته ومدي تأثره لموتها وفقدانها، حتى كان يشعر أن أمه وليست جدته في بعض الأحيان لشدة حبها له.

وبعد موت الجدة، كاد كل شيء في دارها أن يموت بعدها حتى الأشجار خلف الدار باهت لونها، حتى الطيور أصبحت حزينة ومنكسرة، كمن فقد شيئًا غاليًا كأنها تشعر أن التي تقوم برعايتهم قد ماتت، حتى الكلب عنتر، أصبح في حاله من الضعف الذي انتابه حتى نقص وزنه وأصبح ضعيفًا، كأنه يشعر أن الدار لم تعد كما كانت من قبل، منذ أن كانت الجدة تقوم على رعايتها رعاية كاملة، يقول

(١) اليومة السوداء، ص٢٣٨-٢٣٩.
(٢) المصدر السابق، ص٢٣٩.

الراوي: "كان عنتر يفرح فرحًا كبيرًا، وطاغيا متى رجعت من المدرسة، كان يشم رائحتي من بعيد، يهرول ناحيتي ويرحب ويتمسح بي من الأمام ومن الخلف، ثم يتمسح يتمسح بي من اليمين واليسار، وعندما تقترب ناحية دارها يسبقني ويجري ليفتح لي باب الحوش، وكنت أحاول الاهتمام بالحوش كثيرًا، وكنت أرى الدار تقف شاحبه وباهتة وحزينة وأشجار الجوافة حزينة، والافراخ والبط والاوز، والأرانب تقف منكمشة من حزن كبير، كأنها تشعر أن أمها وصاحبتها، التي كانت ترعاها، قد ماتت، وكان عنتر بدأ يضعف وينقص وزنه، كأنه بات يفهم ويشعر أن الدار لم تعد كما كانت منذ يوم رحيلها".(١)

وفي مشهد آخر يصور الكاتب الموت المعنوي وذلك عند زيارة الحفيد لمنزل الجدة عندما رأي البومة تحلق فوق المنزل وهو يطاردها، وذلك لأنها أخذت الأحبة منه وجعلته يعاني من بعدهم، يقول الراوي: "ورأيت نفسي أجري لاهثا، وكنت أقبض على حجرها الصخري في يدي، أقذف البومة بالحجر فتطير، وأطاردها من شجرة إلى شجرة واضربها بالحجارة المتتالية، وكنت أعلمها قائلاً: ألا

يكفيك هذا الخراب يا بومة الشؤم؟".(٢)

هذا المقطع يصور البومة بأنها سبب الخراب والدمار الذي حل ببيت الجدة.

وفي رواية (عتبات السلطان) يتعرض نبيل وهدان وهو الشخصية المحورية في الرواية للضياع على الرغم من الحالة المادية البازخة التي يعيشها، إلا أنه يفتقد ذاته ولا يشعر بها، يقول الراوي: "يهز نبيل رأسه ويسأل نفسه: هل نالت منك سنوات الغربة والسفر؟! وهل هذه هي ضريبة السفر؟! وكأنه يسمع صوتًا يتردد بطول درجات سلم البيت.. هذه ضريبة الغربة يا دكتور".(٣)

كأن الكاتب في هذا المقطع يعالج قضية الغربة والسفر والرحيل من بلد إلى أخرى، وأن السعادة ليست في امتلاك الأشياء الثمينة فقط؛ بل تكمن في أشياء أخرى مثل: الرضا، القناعة، الصحة، الود والمحبة، يحاول الكاتب أن يعالج مشكلة سيطرة الزوجة على الزوج وفرض سيطرتها عليه بكل السبل لتلبية احتياجاتها التي

(١) اليومة السوداء، ص٢٤٠.
(٢) المصدر السابق، ص٢٤٢.
(٣) خليل الجيزاوي، عتبات السلطان، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، ط١، ص ١٢.

لم تنتهِ، لذا يعاني نبيل وهدان من سيطرة زوجته واستسلامه له، وأصبحت حياته غريبة بائسة لا يعرف لها نهاية.

يقول الراوي: "لازم نشترك يا نبيل بالنادي الأهلي الجديد بالتجمع الخامس في القاهرة الجديدة مثل بقية الزملاء الأطباء، وما عليه إلا الاستسلام، ويبيت فمه يردد بآلية: طيب.. حاضر.. نعم".(١)

وقد ظل نبيل وهدان يفكر كثيرًا كيف يستمر في حياته على هذه الطريقة التي لم تعجبه قط، حتى أصبح مجرد تمثال آليًا يلبي رغبات زوجته وأولاده، وكأن الكاتب يُخبر القارئ أن السعادة ليست في جمع المال فقط؛ وإنما بالألفة والمحبة التي تجمع بين الزوجين.

من خلال الموت المعنوي تحيلنا الرواية ضمنيًا إلى مسألة الصراع بين الطبقات من حيث المستوي الاجتماعي والاقتصادي وهذا ما أرادت الرواية التعبير عنه من خلال نموذجي "نبيل" و"سوزان" فنبيل يمثل الطبقة الفقيرة التي كافحت إلى أن وصلت إلى مستوى اجتماعي جيد.

أما سوزان فتمثل نموذجا للطبقة الأرستقراطية، ولذا فإنها تستمد قوتها وسيطرتها على الزوج من خلال الارتكاز على ما تمنحه هذه الطبقة من سلطة.

وفي ضوء ما سبق يمكن القول إن الكاتب قد عرض رؤيته الخاصة لفكرة الموت المادي، وهي رؤية تطرح صدق شعور الكاتب مما يعانيه الإنسان المعاصر من عنف وبطش يذهب بحياة الإنسان، وكان هذا من خلال مدة ما قبل حرب أكتوبر المجيدة، وفي بلاد الغربة كما أن الكاتب تناول فكرة الموت المعنوي من خلال شعور الشخصيات بقسوة الاغتراب، والإخفاق في تحقيق التراث.

نتائج البحث:

وبعد دراسة موضوع (سردية الموت في روايات خليل الجيزاوي) توصلت الدراسة إلى عدة نتائج من أهمها:

- يمثل الموت محورًا رئيسًا في روايات خليل الجيزاوي، وقد انحصر في شقين (الموت المادي، الموت المعنوي).

(١) عتبات السلطان، ص ٢٥.

- ثانيا: حضر الموت في روايات الكاتب بوصفه ظاهرة مركزية تشكل جزءا من الواقع الاجتماعي والنفسي يعكس تعامله مع مفاهيم الحياة والموت فقد جاء بشكلٍ مباشرًا ليظهره بشكل واضح بتصوير لحظات الوفاة التي تؤثر في الشخصيات والمجتمع، واما بشكل غير مباشر فيأخذ طابعا رمزيا ينعكس في تجارب الشخصيات قد يشير إلى انهيار العلاقات الانسانية أو فقدان الأمل أو الهزيمة الداخلية التي تشعر بها الشخصية في عالم يتسم بالتعقيد.
- إبراز معان جديدة تجلت في عالم الموت، فقد اختار الكاتب موضوعات مأساوية ظهرت فيها قسوته التي تمثل الواقع من خلال تعذيب شخصيات الرواية وإيصالها إلى حالة الموت، فكانت المأساة تحل على المجتمع المصري وذلك من خلال أحداث نكسة ١٩٦٧م.
- كان الموت موازيًا للغربة والسجن والفقر والذل من الواقع الذي يعيشه المصري في بلاد الغربة.
- بعض روايات الكاتب تشخيص أدبي لموضوعات الموت وتنازل الموت واشكالاته غير سرد من ترف عتيق سوداوي، وشخوصًا تعاني قلقًا في الحياة الوجودية.
- يرتبط الموت بنقد اجتماعي أو سياسي حيث يظهر موت الفرد أو الجماعة في بعض الأحيان حالة الظلم أو الاستبداد في المجتمع مما يدفع القاريء للتساؤل عن تأثير الظروف الاجتماعية والسياسية في حياة الشخصيات.

قائمة المصادر والمراجع

١) حليم بركات، نظرا الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١.

٢) خليل الجيزاوي أحلام العايشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١.

٣) خليل الجيزاوي خالتي بهية، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ط١.

٤) خليل الجيزاوي سيرة بني صالح، دار الثقافة والإعلام بالشارقة، الإمارات، ط٢.

٥) خليل الجيزاوي مواقيت الصمت، الدار العربية للنشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١.

٦) خليل الجيزاوي يوميات مدرس البنات، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ط١.

٧) خليل الجيزاوي، الألاضيش، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١.

٨) خليل الجيزاوي، البومة السوداء، سلسلة ابداعات عربية، بدار الثقافة بالشارقة، ط١.

٩) خليل الجيزاوي، أيام بغداد، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١.

١٠) خليل الجيزاوي، عتبات السلطان، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، ط١.

١١) ذكي غريب محمود أحمد أمين، قصة الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية القاهرة.

١٢) على السباعي، مسلة الأحزان السومرية، دار الدراويش للنشر والترجمة، جمهورية بلغاريا، بلوفديف، ط١، ص٦٦.

١٣) قادة بلغيتيري فضلون، المجرم القاتل، دراسة ميدانية في المؤسسات العصمانية مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير أنثربولوجيا جامعة تلمسان، ط٢.

١٤) محمد عبد الهادي حيدر، تجارب عتبة الموت (وقائع ومدلولات)، دار نداق للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط١.

١٥) محمد منير، الموت والمغامرة الروحية، دار الحكمة للطباعة والنشر دمشق، ط١.